احتلال بحر الغزال

٧

قبيلة الجور

تركنا حلة الشيخ ايوم وراءنا وهي آخر منازل الدنكا في تلك النواحي. فتنفسنا الصعداء ودخلنا بلاد الجور وهم قبيلة من السود يظن انها وقبيلة الشلك من اصل واحد لما بينهما من المشابهة في اللغة والعادات . والجور على قلة عددهم وضعفهم ارقى كثيراً من الدنكا ولهم مهارة في صيد البر والبحر وفي استخراج الحديد من مناجمه وعمل الحراب والقسي والسهام والفؤوس وأساور النحاس والصفر والحديد فيبيعون كثيراً من هذه الآلات والحلي للدنكا وجل اعتماد الدنكا في الصناعة عليهم لانهم لا يعرفون شيئاً منها وقصارى ما تعلموه من غزاة الدناقلة وغيرهم استخراج العرق من البوزة ولا اظنهم يختلفون الآن عما كانوا عليه في زمن بثرك وشوينفورث . واغرب ما فيهم ان سلاحهم في البلاد التي جلتها لا يتعدى الحراب والنبل مع ان الجور والبُنْقُو[1] على رمية سهم منهم وهم يتلحون بالقسي والنبال منذ عهد بعيد

زراعة التبغ

ونفد مني التبغ فاشتريت غليوناً (حجراً) وقليلاً من تبغ تلك البلاد لكنني وجدته قوياً جداً فلم اقوَ على تدخينه . والتبغ هناك نوعان وهما التنباك والتبغ المعروف وهم يجمعونه رطباً و يجعلونه قوالب صغيرة شبيهة بقوالب الكمر ثم يجففونه . فاذا ارادوا التدخين سحقوه بين احجارهم ووضعوه في غلايين كبيرة جداً قد يسع الواحد منها مئة درهم . وبعضهم يمضغه مضغاً وهي عادة شائعة جداً في السودان كلهم فاذا اكتفى الواحد منهم اخرج المضغة من فمه والصقها وراء اذنه ثم عاد اليها متى اشتاقت نفسه الى المضغ وقلما ترى اسود الا وغليون في يده او مضغة في فمه او وراء اذنه . ولو عُني اهالي بحر الغزال بزراعتهم كلها عنايتهم بزراعة التبغ لانبتت بلادهم من الحبوب ما يكفي السودان والقطر المصري كله بل زاد على ذلك

والدكتور شوينفورث نزيل مصر الآن بحث في تبغ تلك البلاد ذكر فيه ان اسماءه في

---

(١) تلفظ انقاف في الاعلام السودانية والمغربية كالجيم المصرية وقد جريت في كتابتها على طريقة اهل السودان والمغرب وأكثر المؤلفات العربية القديمة فيقال مثلاً ملك بافري ومدينة فوربا وقور أبي جمعة والوادي انفارق وقبيلة المحلاتقة وكبائر سلطان الفرلو كلها بالقاف لا بالجيم

اكثر لغات القبائل هناك تشبه اللفظ الافرنجي اي تاكو منها أه تبو وتاب وتابا وتابديت وتم مما يدل على انهُ دخيل فيها . اما التنباك فاسماؤهُ مختلفة وربما كان اصلياً في اواسط افريقية

وسواء كان التنباك اصلياً في الشرق او دخيلاً فيهِ كالتبغ فلا شبهة في ان هذين اللفظين اي التبغ والتنباك دخيلان في العربية وغيرها من اللغات الشرقية وهما مشتقان من لفظة تاكو الاميركية لا ان لفظة تاكو من الطباق العربية كما يرى بعض كتابنا وعلمائنا الافاضل . فالطباق يختلف كثيراً عن التبغ وهو من الفصيلة المركبة من طائفة حشيشة البراغيث[٢] ويعرف في الشام بالطيون[٣] وفي الجزائر بالمكرمان ولا ينبت في مصر في ما اعلم واشبه نبت بهِ في هذه البلاد زعراع ايوب[٤] وهو مشهور ويختلف عنهُ بخلوهِ من الازوجة . اما التبغ فمن الفصيلة الباذنجانية التي منها البطاطس والداتورا والحدق وعنب الدب والفلفل الاحمر وغيرها . ولا محل هنا للبحث في هذه المسألة ومن شاء فليراجع وصف الطباق في كتب اللغة ومفردات ابن البيطار وتذكرة داود الانطاكي وهذا توفي بعد دخول التبغ الى الشرق بخمس سنوات فذكر الطباق ولم يذكر التبغ . وقد ورد ذكر الطباق في كتاب كشف الرموز لعبد الرزاق الجزائري من اطباء القرن الثاني عشر للهجرة فوصفهُ وقال انهُ يسمى المكرمان في الجزائر ولم يقل انهُ التبغ وكان تدخينهُ شائعاً جداً في ايامهِ ولا يعقل انهُ كان يجهلهُ

الأرضة

ورأينا في بلاد الجور نوعاً من الارضة لم نرهُ قبلاً وقد مرّ ذكر الارضة في رسالة سابقة وهي حشرة صغيرة تعرف عند عامة الانكليز والفرنسويين بالنملة البيضاء وهي معروفة عند العرب منذ عهد بعيد . قال الدميري نقلاً عن القزويني ما نصهُ : « اذا أتى على الارضة سنة نبت لها جناحان طويلان تطير بهما وهي دابة الارض التي دلّت الجنّ على موت سليمان عليهِ السلام » . ثم ذكر امر الصحيفة التي كتبها قريش بين بني هاشم وعلقوها في الكعبة فاكلت الارضة بعض ما كتب فيها

والارضة انواع كثيرة اشهرها الارضة المحاربة وهي كثيرة جداً في السودان وبلاد العرب ومعروفة في بعض انحاء القطر المصري . تبني لها بيوتاً مخروطة الشكل قد يبلغ ارتفاع الواحد منها عشرين قدماً في كل بيت او قرية اربع طوائف منها وهي العملة والجند وذوات الاجنحة ثم الملك والملكة وهما الذكر والانثى . فاذا جاء فصل المطر خرجت ذوات الاجنحة من

(١) Pulicaria (٢) Inula viscosa (٣) Inula dysenterica

القرى فلا تلبث حتى تسقط اجنحتها فيلتقطها السود ويأكلونها ويقال ان طعمها لذيذ جداً. وقد صنعت نساء الجنود بسمينها بالزرازير وهي كثيرة السمن فكنّ يقلينها بما كان يسيل منهُ متى وضعت على النار

وهذه الحشرة او بالحري طائفة العملة منها كثيرة الاضرار بالجلود والاخشاب والامتعة فقد تأكل السرج او الحذاء في ليلة واحدة وقد كنت مرةً نائماً في ظل شجرة فاكلت بعض الملابس التي عليَّ . والحكومة مهتمة بها كثيراً وقد جربت وسائل كثيرة لاهلاكها بغير جدوى على ان الادهان التي فيها مركب من مركبات الزرنيخ او الرصاص تقي الاخشاب منها اذا دهنت بها

اما الارضة التي رأيناها في بلاد الجور فتختلف بيوتها عن بيوت الارضة المجاورة فهي اصغر منها كثيراً لا يتجاوز ارتفاعها ثلاثين عقدة وهي شبيهة في شكلها ببيات القطر . وقد ورد ذكر الارضة ووصفها مراراً عديدة في المقتطف اهمها ما جاء في ٩ : ٤٦٥ و٢٦ : ١٩٠ و٣٩ : ١٤

الوصول الى واو

وبعد سير تسعة ايام اصبحنا وبيننا وبين واو نحو ثلاثة اميال فقلت هي ان نصيب صيداً قبل وصولنا فنحمله هدية الى الجنود الذين فيها واذا ثور وحشي عرض لنا على الطريق امامنا ولم يكن بيننا وبينهُ اكثر من مئة متر فوقف ينظر الينا كأنهُ يستفهم عن سبب قدومنا وازعاجنا اياهُ في مرتعهِ . ولا بدَّ انهُ استغرب شكلنا وشكل الدواب التي معنا لانهُ لم يرَ مثلها قبلاً وكان من النوع المعروف بابي عُرف وهو من اكبر انواع البقر الوحشية في السودان ولا يقلُّ في عظم الجثة عن الثور الاهلي . فاطلقت عليهِ رصاصة اصابت منهُ مقتلاً ثم الحقتها بغيرها حتى لا يقع بعيداً عنا فسقط في مكانهِ فتركت ثلاثة من الجنود يسلخون جلدهُ ويقطعون لحمهُ ولمَّا وصلنا الى واو ارسل البكباشي بلتوى من جاء بالحمل ففرح بهِ الجنود كثيراً وكان وصولنا نحو الساعة التاسعة صباحاً وقد بقي بيننا وبين المعسكر نهر يعرف ببحر الجور وكان في أعلى فيضانهِ وقد بلغ اتساعهُ نحو مئتي قدم . ولم أكن اظنهُ في هذا العظم من الاتساع والعمق فانهُ بعد ازالة السدّ منهُ صارت البواخر النيلية تسير فيهِ في زمن الفيضان كما تسير في النيل وهو ليس سوى ناصر من النواصر التي تمدّ بحر الغزال وهذا يمد النيل الابيض مع ما يمدهُ من النواصر الاخرى كبحر السُّبت وبحر الزراف . وليس النيل الابيض الاَّ جزءاً من النيل الاعظم الذي يجري في مصر

ورأينا البكباشي بلتوى واقفاً على الجانب الغربي وقد ارسل القوارب لمبوردنا وكانت مصنوعة من النسيج الكتيم كل قارب قطعتان او ثلاث تُفصل الواحدة عن الاخرى فيسهل طيها وحملها . فارسلت الحمير اولاً ثم المؤونة ثم الجنود وكان اول سؤال وجههُ اليَّ عن صحة الحمير وسلامتها فقلت مات منها ثلاثة على الطريق قال كنت اود ان تصل كلها سالمة لاننا في شدة الحاجة اليها ثم قال وكيف صحتك انت اظنك جائعاً ونادى خادمهُ ليهيئ لي طعاماً قلت اني لفي جوع شديد لكنَّ شوقي الى التدخين اشد من شوقي الى الطعام فقدم لي سيكارة من اجود السكاير المصرية ثم اعطاني صندوقاً منها . واقسد ذقت مرارة العيش وشيئاً يسيراً من حلاوته ونسيت اكثرهُ لكنني لا انسى تلك السيكارة ولذتها

ولما اخذت نصيباً من الراحة اخذني واراني كوخاً صغيراً وقال هذا منزلك هنا فحمدت الله على نعمهِ وقلت قد صار لي سقف فوق رأسي وكان قد مضى عليَّ اكثر من ستة اشهر اما في العراء او في ظل شجرة او خيمة . ولم نكن نحمل خيماً في سفرنا لان الدواب لم تكن تكفي لحمل المؤونة . فدخلت منزلي وارسلت حماري الى الاسطبل العام حيث نزل ضيفاً على الحكومة

واو

وكانت واو كما مرَّ بنا في مكان بني فيهِ الكولونل مرشان حصناً مياههُ حسن ديزيه فلما نزلناهُ في اوائل يناير بنينا منازلنا حولهُ وحوَّطناها بزريبة من الخشب والشوك وبنى الجنود منازل لنسائهم خارج الزريبة ثم جاء جماعة من الاهالي وبنوا منازلهم هناك فصار المكان غاصاً بالسكان . ولم يكن فيهِ من الضباط عند وصولنا الاَّ البكباشي بلتوى واحمد افندي كامل ثم وفد علينا بعد ايام المرحوم اليوز باشي علي وهبي وكان قادماً من مصر . اما سبارکس بك والبكباشي بري والبكباشي هيمس والملازم الثاني محمد افندي علي فكانوا في بلاد النهام وهي على حدود ولاية الكونغو

ولم تطل اقامتنا في واو حتى اشتدت علينا الحمى الملارية فكنا نقوم باعمالنا وهي ملازمة لنا . واتخذ كلٌّ منا عصاً يتوكأ عليها فكنت اذا ارتفعت الشمس وقلت الرطوبة من الهواء اخرج من منزلي وامرُّ على الضباط فمن لم يكن محموماً في ذلك اليوم او كانت الحمى خفيفة عليهِ خرج لاشغالهِ والاَّ بقي في فراشهِ . وكان كامل افندي اشدنا نشاطاً فلما قرَّ الزاد في المحطة اخذ الحمير وسار غرباً في طلب الذرة وكانت الدواب قليلة جداً وقد مات اكثرها فتطوَّع حماري في هذه السفرة وعاد سليماً معافى

واخذنا نبني منازل جديدة احسن من التي كنا فيها فاقمنا بضعة عشر منزلاً شبيهة بمنازل تلك البلاد لكننا جعلناها مربعة لا مستديرة وجعلنا لبعضها سقوفاً مسمكة . وحدث ونحن نبني هذه المنازل ان البكباشي بلنوى قال لي حبذا لو كان عثمان صديق معنا قلت نعم كنت اظنك غير راضٍ عنهُ لما جرى بينهُ وبين الضابط الانكليزي بالامس في حديقة الازبكية قال هو من خيرة الضباط على شرط ان يكون بعيداً عن القاهرة اخرجهُ منها فلا تجد من يفوقهُ في النشاط والعمل . لقد مضى على هذه الحادثة احدى عشرة سنة وقد ذكرتها لانني لقيت عثمان بك صديق بالامس ورويتها لهُ فضحك كثيراً . وهو الآن ضابط في الجيش العثماني ولم تكد ايطاليا تعلن الحرب على دولتنا العلية حتى جاء من الاستانة وسافر الى ساحة القتال . وكنت اود ان اذكر بعض ما اتى بهِ من الاعمال الجيدة في هذه الحرب لكن الحكمة تقضي بكتمانها في الوقت الحاضر ولقد ابلى بلاءً حسناً يوم دخل جيش الحرية الاستانة في ثورتها المشهورة

مشكلة نسائية

لما دخلنا بحر الغزال اعلن سيادكس بك ان الخصومات التي وقعت قبل الثاني من سبتمبر سنة ١٨٩٨ وهو اليوم الذي دخلنا فيهِ ام درمان لا ينظر فيها بل يبقى كل قديم على قدمهِ اما الخصومات التي وقعت بعد هذا التاريخ فيحكم فيها حسب عادات البلاد . فجاءنا في احد الايام ونحن في واو جماعة من السود ومعهم امرأة يتنازعها رجلان منهم كل يدعي انها زوجتهُ وانهُ اشتراها بمالهِ وقد طال النزاع عليها فكانت تارة عند هذا الرجل وتارة عند ذاك وقتل احدهم اخاها بسببها . ولم يكن البكباشي بلنوى ميالاً الى الحكم في هذه المسألة لكن الرجلين الحّا عليهِ في الفصل بينهما فقلت اتركهُ الحكم لي قال لك ما تريد قلت هل يكون حكمي قاطعاً لا يستأنف ولا ينقض قال نعم فالتفت الى المرأة وقلت اي الرجلين تريدين قالت هذا واشارت الى قاتل اخيها فقلت لهُ خذ زوجتك وامضِ

وقد وقعت لنا مسألة مثل هذه وانا سائر مع البكباشي هيمس على مقربة من المشرع فاذا لقينا على الطريق رجلاً من المهاجرين الذين جاءوا معنا من الخرطوم وكان معهُ امرأة ورجلان يحملان جلد شاة وحزمة صغيرة من التبن فلما رأونا قال المهاجر كنا سائرين الى المشرع تتقاضى على هذه المرأة وقد تزوجتها في الخرطوم بسنّة الله ورسولهِ فلما جئنا الى هذه البلاد رآها اخوها واخذها مني وباعها لهذا الرجل . ثم اراني عقد الزواج وكان عليهِ ختم المأذون

في الخرطوم والصداق عشرة غروش . وقال الاخ ولم يكن مسلماً هي اختي سرقت صغيرة من بيت ابي وبيعت في الخرطوم فلما رأيتها عرفتها وهي ملكي بعد وفاة ابي . وقال الثالث هي زوجتي وقد اشتريتها من اخيها بعدد هذه البنات من النعاج وحل الحزمة فاذا هي عشرون بنتاً . فقلنا للاخ ارجع الى الرجل فجائز لانك بعتهُ امرأة هي زوجة رجل آخر قال لا بل هي ملكي لان زوجها الاول لم يدفع لي ثمنها فلا حق لهُ بها وقد ماتت نعجة من هذه النعاج واراني جلدها . ورأينا الرجل مصيباً لكن الخصومة كانت بينهُ وبين مسلم تزوج امرأتهُ زواجاً شرعياً فقلت للبكباشي شيمس لا يحل هذا المشكل الاَّ اليوزباشي عباس افندي عثمان وارسلنا الجماعة الى المشرع حيث عرضوا قضيتهم عليهِ فحلها على اهون سبيل

نساء تلك البلاد

والنساء هناك من العروض التي تباع وتشترى فلو اتفق ان رجلاً سبى امرأة او سرقها وبقيت عندهُ سنوات ثم عثر عليها زوجها طالبهُ بها وبأولادها كما تطالب بالفرس ونتاجها . واذا توفي رجل عن زوجات وبنات ورثهنَّ ابناؤهُ كما يرثون امواله الاخرى . ويقتني الرجل من النساء بقدر ما عندهُ من البقر والغنم وثمن المرأة من بقرتين الى عشرين بقرة او ما يعادل ذلك من الضأن او المعز . حكى لي البكباشي شيمس مرة انهُ نزل ضيفاً على احد سلاطين تلك البلاد فاولم لهُ وليمة كان فيها من الاطعمة دجاج قد سلق واسماؤهُ فيه فقال لهُ من طبخ هذا الطعام قال احدى زوجاتي قال كم عندك منهنَّ قال انهلني قليلاً ثم خرج حتى وقف على الباب وجعل يعد منازلهنَّ فلما عاد قال هنَّ خمس عشرة امرأة

اما نساء تلك البلاد فكثيرات منهنَّ حسان مستويات الخلق رشيقات القد يزرين بكثير من البيض الحسان شكلاً واعتدالاً لكنهنَّ متى كبرنَّ تحيت منهنَّ معالم تلك المحاسن واعضادهنَّ قبحٌ تنير عنهُ الابصار . والمتزوجات منهنَّ يتشحن بوشاحين من الجلد متقابلين وربما ازر الفتيات بجلد ثالث يرسلنهُ على الصدر . ومنهنَّ من تتخذ بضع ورقات من ورق الشجر تستعيض عنها بالجلود فتكاد تكون متجردة . اما العذارى فبعضهنَّ متجردات ويتشح البعض الآخر بالرهط وهو جلدٌ مشقق من اعلاهُ الى اسفلهِ كانت تلبسهُ الاماء عند العرب ولا يزال معروفاً بهذا الاسم في السودان . قال ابو العلاء المعري

تجلُّ عن الرهط الاماتُ غادةٌ لها من عقيل في ممالكها رهطُ

الدكتور امين المعلوف